المحور الثالث: تاريخ الأنثروبولوجيا

المحاضرة 06: الأنثروبولوجيا في القرن التسع عشر والتوسع الاستعماري

تمهيد:

في القرن التاسع عشر ارتبطت نشأة الأنثروبولوجيا وبداياتها بالتوسع الاستعماري، حيث أخذت منحى جديد وغلب عليها طابع أكاديمي متميز، وفيما يلي سنتناول أهم الإسهامات التي عرفتها هذه الحقبة، إضافة إلى التطرق إلى أهم الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر خلال فترة الاستعمار أو قبل الاستقلال.

1) نشأة الأنثروبولوجيا وبداية التحول في الدراسات الأنثروبولوجية:

كانت الدراسات الأنثروبولوجية مع بدايات القرن التاسع عشر تتم على المجتمعات غير المتحضرة بهدف معرفة بنيتها وتركيباتها وطبيعتها الثقافية لكي يسهل استعمارها، وشكلت بذلك هذه الدراسات أداة في يد السلطات الحاكمة في البلدان الأوروبية التي كانت تشهد مع توسع البحث الأنثروبولوجي توسعا جغرافيا واسعا.

فمع بداية هذا القرن اهتم عدد من الباحثين بدراسة الأطلال والبقايا التي وجدوها في مناطق جغرافية مختلفة، والتي كشفت عن عمر الأرض التقريبي وعن تاريخ الوجود البشري، حيث اكتشف الباحثون الفرنسيون أن وجود الإنسان في فرنسا يعود الى العصر الجليدي، ففي سنة 1830 تم العثور على أدوات حجرية تعود الى هذه الحقبة، ثم العثور على أدوات أخرى في الفترة مابين 1847-1864.

في هذه المرحلة أصبحت المجتمعات البدائية محورا للبحث الأنثروبولوجي، الذي حل محل المجادلات غير العلمية التي سادت بين المفكرين القدامى، وكان الهدف منه هو الكشف عن القوانين التي تحكم تطور المجتمعات البشرية، إذ اعتبرت الفترة ما بين 1861 الى 1871 فترة ميلاد لهذا العلم، حيث ظهرت فيها مجموعة من المؤلفات لعدد من الرواد منها:

- كتاب **المجتمع القديم** عام **1861** وكتاب **المجتمعات القروية** عام **1871** للبريطاني: **هنري مين.**
- كتاب **أبحاث في التاريخ القديم للجنس البشري** عام **1865** وكتاب **الثقافة البدائية** عام **1871** للبريطاني: **ادوارد تايلور.**
- كتاب **الزواج البدائي** عام **1865** للبريطاني: **ماكلينان.**
- كتاب **المدينة العتيقة** عام **1864** للفرنسي: **فوستيل دي كولانج.**
- كتاب **أنساق روابط الدم والمصاهرة في العائلة البدائية** عام **1871** للأمريكي : **لويس هنري مورجان.**
- كتاب **حق الأم** عام **1861** للسويسري : **لويسباخوفن هنري مورجان.**

2) من علم الاجتماع الى الأنثروبولوجيا:

المحور الثالث: تاريخ الأنثروبولوجيا

المحاضرة 06: الأنثروبولوجيا في القرن التسع عشر والتوسع الاستعماري

بالرجوع إلى نشأة علم الأنثروبولوجيا نجد أنه ومنذ نزعته الأولى في القرن الثامن عشر لم يحدث ذلك الصدى العالي في الأوساط العلمية، باعتباره علما حديثا لا يكاد يختلف عن علم الاجتماع إلى الحد الذي لا يستطيع الباحث التمييز بينهما كعلمين منفصلين عن بعضهما، ففي الوقت الذي يهتم فيه علم الاجتماع بدراسة الإنسان وعلاقاته بالآخرين والمجتمع والبيئة، من خلال التركيز على المجتمعات المتقدمة بكل ما تحمله من إيجابيّات وسلبيّات، مع استخدام طرق الدراسة التجريبية والعملية وفق التحليلات الانتقادية حتى يستطيع البحث وفهم السلوك الإنساني في المجتمع، تعنى الأنثروبولوجيا بالدراسة العلمية للإنسان، من خلال معرفة محددات حياته في المجتمع الذي يعتبر جزء منه، كيفية ترتيب العلاقات الاجتماعية بين الناس، تحديد منابع الاختلاف بين المجموعات الإنسانية، تطور الحضارات الإنسانية، وغيرها....

ومع وجود علوم أخرى تهتم بدراسة الحياة الإنسانية، تتفرد الأنثروبولوجيا بخصائص منهجية في دراساتها للإنسان، والتي تتحدد من خلالها سمات هذا العلم عن بقية العلوم، وعن علم الاجتماع بصفة خاصة، منها:

- استخدامها للمنهج المقارن في دراسة الإنسان، حيث تتم من خلاله الدراسة المقارنة لمجتمعات متعددة في أبنيتها الاجتماعية والثقافية.
- اعتماد الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية المعاصرة على ما يسمى بالبحث الحقلي، أو المعاينة الميدانية للنموذج

3) الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال (المرحلة الكولونيالية):

ارتبطت نشأة الدراسات الأنثروبولوجيا وبداياتها التاريخية بالحركات الاستعمارية التي طالت الكثير من بلدان العالم، حيث كان الغرض منها دراسة المجتمعات المستعمرة بهدف معرفة بنيتها التركيبية وطبيعتها الثقافية ليسهل استعمارها، حيث كان للمدرسة الأنثروبولوجية التي نشت في ظل الاستعمار دور كبير في خدمة هذا الأخير وفي تغذية أطماعه التوسعية.

والجزائر شأنها شأن دول العالم الثالث التي عانت من الاستعمار، شكلت مجالا خصبا للدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية التي كانت في بداياتها الأولى تتم على يد العسكريين والضباط الميدانيين الذين شكلوا النواة الأولى للبحث الأنثروبولوجي في غياب علماء متخصصين في هذا المجال في ذلك الوقت، فالسلطات الاستعمارية لم تكن لها دراية كافية بالمجتمع الجزائري، مما استوجب معرفة كل ما يتعلق بعاداته وتقاليده وثقافته وتركيبته وعقائده وكل ما يرتبط به ، ما يسهل السيطرة عليه فيما بعد وطمس هويته الدينية والثقافية.

وبعد مرور ما يقارب العشر سنوات من بداية الاحتلال شرعت الحكومة الاستعمارية في إجراء تحقيقات ميدانية واسعة النطاق تم جمعها في أربعين مجلدا في السنوات الممتدة ما بين 1844 و 1867، قام بها العسكريون الى جانب عدد من المختصين في التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات من أجل تكوين فكرة شاملة عن المجتمع الجزائري. وقد كانت مجمل هذه التقارير سطحية وساذجة قدمت صورة متباينة ومتشعبة الرؤى عن الإنسان الجزائري.

وقد توالت بعد ذلك الدراسات الأنثروبولوجية التي كان الهدف منها تفكيك تركيبة المجتمع الجزائري، ومعرفة نقاط قوته وضعفه وإيجاد السبل المناسبة للتحكم فيه، فظهر عدد من نظريات التحليل والتي كانت سائدة في تلك الفترة مثل: تحليل **فالونسي** وتحليل **كارل ماركس** اللذان ركزا على الجانب الإنتاجي لمعرفة تركيبة المجتمع الجزائري.

كما ظهرت دراسات أخرى لعلماء وكتاب نادوا باستقلال الشعوب، وأظهروا الضبابية التي كانت تتسم بها الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية، أمثال: **جورج كوندوميناس**، و**جورج بالونديه**، و**روبرت**

جوليان، كما ساهم **بيار بورديو** وقيرتز، و**جاك برك**، و**ارنست قلنر** بدراسات حول المغرب العربي باعتباره وحدة ثقافية مشتركة، إلى جانب دراسات أخرى لعلماء وكتاب جزائريين أمثال **أبو القاسم سعد الله** وغيره.
وبصفة عامة يمكن تحديد تاريخ الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر قبل الاستقلال إلى ثلاث مراحل هي:

- **المرحلة الأولى- من 1830 إلى 1871:** طغى عليها الطابع العسكري، واتسمت بالسطحية والفبركة.
- **المرحلة الثانية- من 1871 إلى 1919 (الحرب العالمية الأولى):** كانت لها اتجاهات ورؤى عديدة ومتشعبة
- **المرحلة الثالثة- من 1919 إلى 1954:** ركزت اهتمامها على الحركات التحررية، والحركة الوطنية، وحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، والمطالبة باستقلاله.

4) الانتقادات الموجهة للدراسات الأنثروبولوجية في القرن 19:

واجهت الدراسات الأنثربولوجية في القرن 19 انتقـــادات كبيرة مع بداية القرن 20 منها:

- كون الإسهامات الفكرية التي ظهرت في هاته الفترة كانت من قبل رواد غير مختصين، حيث تنوعت تخصصاتهم بين القانون، والتاريخ، واللغات، وغيرها....
- كانت أغلب هذه الدراسات بعيدة عن التحليل المنهجي بل غلب عليها طابع السرد والوصف، والصبغة الأدبية الخالصة.
- ميل معظم هذه الدراسات إلى التأريخ، وانشغالها بمسألة الأصول، حيث ركزت على أصل النظم الاجتماعية، والطوطمية *، والزواج الخارجي، ونشأة الأديان، وغيرها....
- لم يستند هؤلاء الأنثروبولوجيون علـــى المشاهدة الواقعية، والدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى؛ وإنما اعتمدوا على ما رواه الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة من المستعمرين الأوروبيين، وبما أن الدراسات الميدانية هي أهم الأركان الأساسية للأنثروبولوجيا، فإنه لا يمكن اعتبار القرن 19 فترة نضوج لهذا العلم، وإنما فترة نشأة فقط.

خلاصة:

تأسيسا على ما تقدم يمكن القول أن الفكر الأنثروبولوجي الـــذي ســـاد أوروبا في عصر النهضة والتنوير، وتجلى في كتابات العديد مـــن الفلاســـفة والبـــاحثين والمؤرخين، وتبلور من خلال الطابع الأكاديمي الذي اكتسبه في القرن 19 قد شكل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا الحالي، ومع أنه في بداياته الأولى لم يحدث ذلك الصدى العالي في الأوساط العلمية، باعتباره علما حديثا لا يكاد يختلف عن علم الاجتماع، إلا أنه سرعان ما بدأ بالاستقلال بذاته مع بدايات القرن 20، حيث تبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثـــاني من القرن ذاته.

المراجع المعتمدة:

1) فريديريك بارث وآخرون: **الأنثروبولوجيا حقل علمي وأربع مدارس**، ترجمة: أبو بكر أحمد باقادر وايمان الوكيلي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، 2017
2) بن عرفة ابراهيم، بشيرة عالية: **" قراءة في أنثروبولوجيا الجزائر من 1830 إلى 1962"** ، مجلة متون، المجلد 11، العدد 02، سبتمبر 2019.
3) Britta Rupp-Eisenreich: **Histoires de l'anthropologie: XVIe-XIXe siècle,**

* **الطوطمية:** هي ديانة مركبة من مجموعة الأفكار والطقوس والعادات التي تتمسك بها جماعة أو قبيلة معينة يكون لها رمز مقدس اسمه الطوطم يكون على شكل حيوان أو نبات ما.

4) Olivier Servais et Colloque La Pratique de l'anthropologie aujourd'hui, 19-21 Novembre 1981 Gérard Van't Spijker : **Anthropologie et missiologie XIXe- XXe siècles Entre connivence et rivalité**, Edition KARTHALA, Paris, 2003.